قصة قصيرة

صرخة ضمير

للكاتب

حسنين علي نوري

قصة قصيرة

صرخة ضمير

للكاتب

حسنين علي نوري

جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوضة لدى الكاتب@

في صباح اليوم، أقصد يوم ألخميس ذو السماء الملبدة بالغيوم، والجو الكئيب كالشخص الذي صادفني على قارعة الطريق المؤدي إلى محطة تصفية المياه للمياه المعدنية، حينما كنت ذاهبا إلى هناك، ذلك الشخص مازن أو الطفل مازن، نعم أقولها بكل اعتقاد، أنه طفل يبلغ من العمر الثالث عشر عاما، تزوج قبل أكثر من شهرين بينما أنا تجاوزت سن الثانية والثلاثون وما أزال عازبا، أو رافض فكرة الزواج بتعبير أدق، في ظل الظرف المادي الصعب، والوضع النفسي المحطم، الذان أعاني منهما بشكل مستمر، وهدف سامي أسعى لتحقيقه كأنه كلمة حق تسير في طريق مظلم وطويل...

- السلام عليكم

ألقى التحية علي بصوت يعتريه الكبرياء، رافع يده عاليا كهتلر النازي .

ــعليكم السلام مازن، كيف حالك يا بني؟

أجبته بكل أدب كما ترون، ثم طلب مني أن أتوقف قليلا ليحدثني ضننته في بادئ الأمر أنه بحاجة الى مساعدة أو ربما لإسداء النصح له لقد اعتدت على أمور كهذه في حياتي اليومية، لكن في لحظة ما فاجئني بهذه العبارات "لماذا لم تتزوج حتى الآن، كم عمرك ولا زلت عازبا، تزوج تزوج فالزواج أساس السعادة وفيه استقرار، انظر لحالتي كيف أصبحت، أنا إنسان مليىء بالحيوية والمسؤولية، لماذا لم تتزوج وما يكلفك الزواج؟ " ... وقفت صامدا كأني صنم أو إمعة لا قرار لي ولا رأي!

يمكن القول إن هذا الشعور راودني بشكل مفاجىء، عندما وجدت نفسي أمام أسئلة ذلك الأحمق، التي كانت تهطل علي كمطر الشتاء.

كنت أنصت لحديثه كثير المواعظ، وأنا أقول في نفسي: لأدعه يكمل كل ما لدية دون أن أقطع كلامه، ثم همس في أذني متى ستتزوج؟ نحن لا نعتبر الذكر رجلا إلا بعد أن يتزوج! يا لوقاحتك أتعني ما تقوله يا فتى، كيف تجرأت؟ لقد تجاوزت حدود الأدب دون أن تحسب لمكانتي أي اعتبار، كانت تلك الكلمات، تغلي في داخلي كصخور ذائبة تريد أن تتطاير من فمي كحمم البراكين الملتهبة لتردع ذلك الطائش المتمرد، لكنني تمالكت نفسي قبل أن اخرج من إطار الأخلاق الذي كان يلازمني طوال الوقت، والذي أصبح يؤلمني كثيرا في هذا المجتمع البائس، كان يحادثني ويتظاهر أنه يكبرني سنا، استشعرت ذلك من نبرة صوته التي كادت أن تجبرني على الضحك، ولكنني منعت نفسي وتداركت الوضع بكل دهاء وبلاهة، ثم سألته:

-أتملك، الاستعداد النفسي والمادي للزواج، وأنت بهذا العمر الصغير؟

أجابني بضحكة تعتريها الثقة العمياء، أي كلام تقوله، فبنت عمي – لم يراها في حياته القصيرة التي مضت _ لقد بلغت سن الزواج، وأصبحت جاهزة، ليس هناك أي مال فالجميع قد تكفل بمراسيم الزواج دون أن ادفع شيء، واصل ضحكته التي كانت بالنسبة لي كالحياة بريئة ودنيئة، ثم انصرف كل واحد منا إلى مقصده، ذلك المسكين لا يعلم بأن لا علاقة بين الزواج والرجولة، فالبعض يعتبر القائد الفرنسي نابليون بونابرت، من أشد الرجال قوة وشجاعة، ومع ذلك نابلون لم يتزوج، وما علاقة الرجولة بالزواج، لا أدري، أنا اقول لا ادري دوما، هذا الأمر غريب؟ ولكن هذه المرة تختلف عما مضت.

اعلم أنهم سيضعونك في زاوية ضيقة ثم يجعلونك مسلوب الإرادة، لأنك لم تقرأ سطرا واحدا، أو بالأحرى ما مسكت يداك غلاف كتاب، لم تملك أي خزين معرفي، أؤكد لك أنك ستنهار من الضربة الأولى؛ ستستسلم لأمرهم، تقتنع بكلامهم ذوي الجذور الجاهلية، ثم تنتمي لهم عندها ستتزوج دون قناعة، حب، دون معرفة، تحت ظرف مجتمعك السيء في ظل وجود سلطة لا شرف وعنوان، كل شيء هنا مخيف، يدعوك إلى الإعتزال حتى في ذلك لن تخلص من قبح قولهم ،وشر فعلهم، نعم أنه مخيف جدا، وغريب ايضا.

كيف تزوجت، وأنت لا تملك عملا، فحاجت المرأة للمال والحنان أكثر من أي شيء آخر، أتفهم قصدي؟ ماذا لو رزقك الله مولودا، ماذا ستفعل وأنت لا تملك مالا ؟... لا تهرب .

لا أعرف، كيف يستطيع المرء أن يشارك في حياته امرأة، لا يعرف شيئا عنها، لا لا، لا أقصد ما تحب أن تأكل أو ما هو فنانها المفضل أو اللون الذي تعشقه، هذا لا يهم، كل ما أريد معرفته ما مستوها الثقافي، العلمي، النفسي،... فأنا إنسان يؤمن بالمستويات، بالأخير سينتهي بك المطاف إلى أن تستجدي الأموال لسد رمق عائلتك، ستقاتل بروحك التي حكمت عليها بالسجن مع الأعمال الشاقة؛ لأجل توفير الحاجات الأساسية لتلك العائلة المحرومة من أبسط حقوقها في هذا الحياة القاسية، ستنظر إلى ابنك الذي يصرخ من شدة الوجه طوال الليل لان أحد أسنانه تؤلمه، لكنك عاجز أن تاخذه الى طبيب مختص، لأنك لا تملك النقود، وابنتك التي يقتلها الحرج عندما يذهبن صديقاتها إلى كافتيريا الكلية، وهي تخلق

الأعذار الواهية لكي لا تذهب معهن ليست رغبتة منها لا، لكن لا تملك نقودا كافية لتأكل معهن، لم يكن ذنبها، بل ذنبك ،أنت من حكمت عليها بهذا العذاب الهادئ وجميع أفراد عائتلك الآخرين، ثم ينتهي بك المطاف إلى الانتحار، او التشاجر مع زوجتك، لتبدأ حروبا لا تنتهي معاركها بينكما، كل واحدا منكم يسب الآخر بالسر والعلن على اليوم الذي تعرفتما فيه، أحدكما سيموت من كثرة القهر، التفكير، الأرق، اذا اكملتما هذه المسيرة اللعينة دون أن تفترقا أصلا ...

طوال الطريق وأنا أتساءل نفسي بتلك العبارات حتى كاد رأسي ينفجر من كثرة التفكير إلى أن وصلت لباب منزلي، دون أن أشعر بمسافة الطريق، وأحقق مبتغاي، لم يكن كلام مازن جارحا بالنسبة لي أو محزن أنما كنت أرى انعكاس لمجتمع تشكل الأغلبية الساحقة فيه قاعدة الجهل والتخلف بكل امتياز، آه لقد مضى على ذلك الموقف عشرون عاما ولا زال عالقا في ذاكرتي كعاشق يحتفظ بصورة حبيبته.

ذات يوم ربيعي جميل كجمال زوجتي السيدة اهتداد، صاحبة الشعر الكيرلي الطويل، والعيون السوداء الواسعة، وصوت العذب كلحن موسيقى تركية رائعة، كانت زميلتي أيام دراستنا العليا للحصول على الماجستير والدكتوراه في جامعة ديارباران، كنا جالسين في غرفة مكتبتي، كانت في الطابق العلوي من منزلنا الفاخر، نتبادل الآراء في نظرية (صدام الحظارات)، لصاموئيل هنتنغتون، بعد عدة دقائق سمعنا صوت الباب يطرق، كانت فتاة جميلة لا يمكن لك ايها القارىء أن تتخيل صورتها كأنها ضوء القمر المضنى، كانت ميسون إبنة جارنا العزيز، لقد

شاهدناها للتو عبر شاشة المراقبة الخاصة بمنزلنا، وبينما ذهبت زوجتي الى تلك الفتاة المسكينة، التي اعتادت على زيارتنا دوما، إذ أنها كانت تساعد زوجتي في بعض الأعمال المنزلية مقابل أجر مادي، كنت أشاهد ذلك المسمار البشري في شاشة المراقبة، كانت نحيفة جدا كأنها عمود إنارة، وثيابها متسخة قديمة لا لون ورائحة لهما ، كنت أشاهد ملامح وجهها وهي تحادث زوجتي، إبتسامة خجولة؛ ويدان ترتعشان كأنهما يرقصان في حفل زفاف، ليس لبرودة الجو فالسماء صافية والهواء معتدل، لكن لفرط إستيحائها من ذلة السؤال وفي عينياها قصة حزن عنوانها: الجوع، الألم، الحرمان، الضياع...

أنها واحدة من بين سبعة افراد آخرين، يعيشون في المنزل أو الجحيم نفسه، مع المعاناة نفسها، لا أحد منهم تنعم بمرحلة الطفولة كما يجب أن يعيشها الأطفال، لقد تجرعوا كل انواع الألم، أنهم بختصار ملائكة معذبون بائسون، واقعهم مرير، مستقبهم مجهول، ليس ذنبهم أنهم ولدوا في هذه الحياة القذرة إنما لأنهم أولاد السيد مازن!